الأخلاق ...

وآليّات بناء الوعي الرشيد

إعداد

أسماء علي عبد الحليم محمد عمر

باحثة ماجستير في اللغة العربية

قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

القاهرة

الأخلاق ... وآليّات بناء الوعي الرشيد

أسماء علي عبد الحليم محمد عمر.
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، القاهرة، جامعة الأزهر.
البريد الإلكتروني:asmaaali2846@gmail.com

ملخص البحث:

استهدف البحث الوقوف على إحدى الغايات العظمى من بعثةِ الرسول محمد – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ألا وهي (موضوع الأخلاق) دراسة بلاغية، حيث تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور هي:- الأخلاقُ... البُغيةُ والغاية، وآليّاتُ بناء الوعي الرشيد... تربيةً وتَرقية، آليّاتُنا الإسلامية الغائبة عنّا... تذوقًا وتفعيلًا في إعدادِ جيلنا. من خلال عرضها المفاهيم التعريفية لكل محور، كما تم ذكر أهداف الآلية البلاغية عند الإمام الخطابي (٣١٩هـ – ٣٨٨هـ) والإمام الجرجاني (ت – ٤٧١هـ) من خلال الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية، وتوصل البحث إلى نتائج منها: أنّ الأخلاقُ الحِسانُ ركنٌ قويمٌ مِن أركانِ الدين الإسلامي الحنيف، رُكنٌ لا يَلحقه نسخٌ أو تَبديل. وأنّ الهديُّ قد بيّن أنَّه ليس كلَّ مُسلمٍ ذو خُلُقٍ قويمٍ حميد، بل كلُّ مُؤمنٍ ذو خُلُقٍ قويمٍ حميد، يقول الله، تعالى، حكايةً عمَّا جرى على ألسنةِ الأعراب: " قَالت الأَعرَابُ ءَامَنَّا قُل لَم تُؤمِنُوا ولَكن قُولُوا أَسلَمنَا ولَمَّا يَدخُلِ الإِيمَانَ فِي قُلُوبكُمُ ..." (الحجرات: ١٤). وأن القرآن الكريم نزل على هذه الصفة من جمع أَشياءَ مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد؛ لتكون أَكثر لفائدته وأَعم لنفعه.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، الوعي، الآلية البلاغية، التربية الأخلاقية في القرآن.

Morality and the Mechanism for Building Rational Awareness

Asmaa Ali Abdel Haleem Mohammad Omar.

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies (Female Students) in Cairo, Al-Azhar University, Egypt

Email: asmaaali2846@gmail.com

Abstract:

This research explores - in a rhetorical study - one of the great topics related to the mission of Prophet Muhammad (pbuh), namely the topic of ethics. The research is divided into three main themes: Ethics as the purpose and goal, mechanisms for building rational awareness through education and development, and our neglected Islamic mechanisms for cultivating and activating ethical principles in preparing our generation. This study presents definitions of key concepts for each theme and mentions the goals of rhetorical mechanisms according to Imam Al-Khattabi (319 - 388 AH) and Imam Al-Jurjani (d. 471 AH) through citations of certain Quranic verses. The research has reached several conclusions, including that noble ethics are a fundamental pillar of Islam. Furthermore, not every Muslim possesses refined and praiseworthy character; rather, every true believer possesses such noble character. Recounting the words of the Bedouins, Allah Almighty says, "The Bedouins say, 'We have believed.' Say, 'You have not yet believed; but say [instead], ‘We have submitted,’ for faith has not yet entered your hearts..." (Quran 49:14). Additionally, the Quran

was revealed in a manner that gathers diverse meanings within a single surah to make it more beneficial and more useful.

Keywords: morals – awareness – rhetorical mechanism – ethical education in the Qur’an

الحمدُ لله رَبِّ العَالمِين . الرَّحمنِ الرَّحيمِ . مَالكِ يَومِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ. اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ. سبحانه، تعالى فضلُه ورحمتُه، أَرسل في العَالمِين رسولًا منَّا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، يُعلِّمُنَا ويُزكِّينا، وقد زكَّاهُ ربُّهُ في القرآن محمد وأحمد، وفي العالمِين محمودًا، محمودُ السيرةِ والمَسيرة، تزكيةً تَعلُو وتربو الزمانَ والمكان، ووُسِم وطُبِع وتُرجم فينا عَظُم خُلُقِهِ، الراضي والمُرتضَى، فقال تعالى: "وَإِنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عَظِيم"، فينا رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، قدوةٌ حسنةٌ للعَالمِين مُهداةٌ، " **لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرجُوا اللهَ وَاليَومَ الأَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**" (الأحزاب: ٢١).

محاورُ البحث:

- **الأخلاقُ ... البُغيةُ والغاية**
- **آليّاتُ بناء الوعي الرشيد ... تربيةً وتَرقية**
- **آليّاتُنا الإسلامية الغائبة عنّا ... تذوقًا وتفعيلًا في إعدادِ جيلنا.**

مُقدمة

بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الحمدُ لله رَبِّ العَالمِين * الرَّحمنِ الرَّحيمِ * مَالكِ يَومِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* سبحانه، تعالى فضلُه ورحمتُه، أَرسل في العَالمِين رسولًا منهم، يُعلمهم ويُزكيهم، وقد زكَّاهُ ربُّهُ في القرآن محمد وأحمد، وفي العالمِين محمودًا، محمود السيرةِ والمَسيرة، تزكيةً تَعلُو وتربو الزمان والمكان، ووُسِم وطُبِع وتُرجم فينا عَظُم **خُلُقِهِ**، الراضي والمُرتضَى، "**وَإِنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عَظِيم**"، عزّ وجل سبحانه، تعالى فضلُه، أن يقسمَ في تقريربيَانِه بـــ "**واو**" القسم، و"**اللام**"، فضلا عن تحريرِ ذاك البيان وإطلاقِه، دون الوُقوف على سياقِه، أي المقال القرآني بذاك السورة وهي سورةُ القلم، بأداةِ التوكيد "**إنَّ**"، عَرُوسُ البابِ، أي بابُ التوكيد، قد عزَّ شأنُه تعالى عن فقرِ بيانِه إلى توكيد بأداةٍ في البيانِ بها أثرٌ طيب، غنيٌّ في الخبرِ، يُؤتَى ثَمرهُ ولا يُفنى أثرُه. تلك أداةٌ، أي: "**إنَّ**" تُهيِّئ البيانَ وتُقوَمَه أبديًّا خالدًا مُتفرِّدًا، لأن يكون بحديثٍ محدثًا عنه بالحُسنِ والطَّلاوة والتمكُّنِ الذي يَتلقاه السامعُ وفيه وَاجِدهُ.

إنَّ **الأخلاقَ** في الإسلامِ لا تقوم على نظريات مذهبية، فتُردُّ وتُحدث، ولا مصالح فردية، تُقبل وتُرفض، ولا عوامل بيئية، تَتَبدّل وتُستحدث، وإنَّما هي فيضٌ إيماني، من ينبُوعِ الإيمان يَشُعُ نورُه داخل النّفس وخارجها، تَزكيةً وتطهيرًا، "قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها" (الشمس: ٩)، فليست **الأخلاقُ** فضائلَ عن الإسلامِ مُنفصلةً، وإنَّما هي حلقاتٌ مُتصلة في سلسلةٍ واحدة، مبدأؤها شهادةُ :أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، صلى الله عليه وعلى ءال بيتِه وصحبه وسلم، تلك السلسلةُ عقيدتُها **أخلاقٌ**، وشريعتُها **أخلاقٌ**، لا يَخرق المرءُ المُسلم إحداها إلا وقد أحدث خرقًا في إيمانِهِ، عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة، رضي الله عنها

وأرضاها، قالت قال رسولُ الله صلَّ الله عليه وءالِ بيته وصحبه وسلم: "**مَن أَحدَثَ في أمرِنَا هذا ما ليس مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**"(١).

إنَّ موضوعَ **الأخلاق**، على مرَّ العصورِ، مشغلةٌ كُبرَى من اهتمام الانسان، فالانسانُ، من حيثُ أنَّه إنسان، لا يستطيع أن يستغني عن **الأخلاق** في أي لحظةٍ كان، ولا يستطيع أن يستغني عن مثلٍ أعلى به يقتدي ويهديه، ويرجع إليه في سلوكِه، قدوةً بها يَقتدي معيارًا للحكمِ على أفعالِه إزاء نفسِه أولًا، " يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيكُم أَنفُسَكُم ..."(المائدة: ١٠٥)، وإزاء أفعالِ النَّاسِ من حولِه، خيرًا كان أو شر، فالإسلامُ دينٌ ذو أركانٍ ثلاث، عبادات ومعاملات و**أخلاق**، فمَن صَلُحت عبادتُه ومعاملاتُه صَلُح **خُلُقُه**، وسببُ الأَنس في هذا التأليف، أي بين الأركان الثلاثة، أنَّه يُفيد فيه الصِّحة، أي صحةُ العبادة، وينفي عنها الرَّيبَ والشَّكَّ، ويُؤمن صاحبه من تكذيب المخالف، وتهجُّم المنكرِ، وتَهَكُّم المعترض، وموازنتُه بحالِ كشف الحجاب عنه فأسلم، وأُخرج من الظلمات إلى النَّورِ، فإنَّ تلكَ الأركان، وهي في أنفسِها معروفةٌ مشهورة صحيحة، غنيَّةً عن الدِّلالةِ أنها هل هي ممكنة موجودةٌ؟، أم لا؟، يقول رسولُ الله، ﷺ: "**إنَّمَا بُعثتُ لِأُتمم مكارمُ الأخلاق**"، فإنَّها، أي مكارمُ **الأخلاق**، وإن غُنيَت من هذه الجهة، أي التمثيلُ بالمشاهدات والمحسوسات، تعريفًا، فإنَّها تَفتقر إليها من جهةِ الوعي، لأنَّ وَعيَها في العقلِ، تربيةً وتثقيفًا وتَفعيلًا، تختلف وتَتَفاوَت.

حسبُ هذا البحث أنَّه محاولة في تبيانِ الغايات العظمى من بعثةِ الرسول محمد – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم – فكان من أعظم هذه الغايات ما أخبر به – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم – في حديثِه الثابت عنهﷺ

(١) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية لوارث العلم النبوي يحيى بن شرف الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ)، صـ ٢٣، ط٢، طبع بتصريح من إدارةِ البحوث والنشر بالأزهر.

يقول: " **إنَّما بُعثتُ لأُتمم مكارمُ الأخلاق**"، فالفرائضُ والأركان التي شرعها الإسلامُ تُحاكي دوراتًا تدريبية لِتزكيةِ النَّفس؛ فيتزكى بها المرءُ، ويفلحُ في الدَّارين.

تلك الأركانُ الثلاثة، أي العبادةُ والمعاملةُ و**الأخلاقُ**، الشريفة اللطيفة، لا بُدَّ فيها، تصحيحًا وتقويمًا، بل وتفعيلًا، من بناءٍ ثانٍ على أوّل، وردٌّ تالٍ إلى سابق.

الأخلاقُ هيئةٌ راسِخةٌ في النفس، "**ونَفسٍ وَمَا سَوَّاها . فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا . قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا**" (الشمس: ٧: ١٠)، نفسُ المَرءِ تَصدر عنها عبادته ومُعاملته و**خُلُقه**، فإنَّ كانت الهيئة قد زُكَّت، هي التي تصدر عنها هذا كله، كانت تلك النَّفسُ جميلةٌ محمودةً، وإن كانت غير ذلك فقد خابت وخسرت، الدنيا والأخرة، **فَخُلُقُ** المرءِ إمَّا فطريَّةٌ أو مُكتسبةٌ، ممارسة.

هذا، ولم يَقتَصر الأمرُ في النصوصِ القرآنية ذات مغازٍ مختلفة، عبادةً ومعاملةً و**خُلُقًا**، إلَّا وقد نُظِّمَت وأُلِّفَت، بل وغُرِقَت معًا، بطريقةٍ غامضةٍ وَسط نصوص تَتَصل بموضوعات فقهية، أو أصولية، أو كلامية، أو كونية، أو غيرها، شَاهدُ هذا قولُ الله، تعالى فضلُه: " وإِن طَلَّقتُمُوهنَّ مِن قَبلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَد فَرَضتُم لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصفُ مَا فَرَضتُم **إِلَّآ أَن يَعفُونَ أَو يَعفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعفُوٓا أَقربُ لِلتَّقوَى وَلَا تَنسَوُا الفَضلَ بَينَكُم إِنَّ اللهَ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ**" (البقرة: ٢٣٧)، وذاك وجهٌ عزيزٌ أُمِّيٌّ من وُجوهِ إعجاز القرآن الكريم، وجهٌ قد وُسِم قبلُ: بـــ "**تأليف المُختلف**"[١].

وهكذا، لم يَنهض أحدٌ، فيما نعلم، حتى الآن باستخلاصِ الشريعة **الأخلاقية** من القرآن الكريمِ، على نحو ما أُقيم في العبادات والمعاملات، فلم يحاول أحدٌ أن يَنصَّ ويُقدَّم لنا مبادئها وقواعدها في صورةِ نظمٍ مُتماسك.

(١) إعجاز القرآن للباقلاني، لأبي بكر محمد بن الطيّب، ت: ٤٠٣هـــ، ط ٢، تحقيق: السيد أحمد صقر، نشر: دار المعارف، (د .ت).

وتلكم هي المهمة العليّة الجليّة التي انتدبنا لِلوفاءِ بها هنا، بِقدرِ ما تُطِيقه وَتَتَحمَّلهُ وسائلُنا.

المحور الأول

الأخلاقُ ... البُغيةُ والغاية

الأخلاقُ:

ويتناول التعريف بمفاهيم الدراسة، ويشتمل على:

أولًا: ما **الأخلاق؟**

ثانيًا: ما مصدرُ **الأخلاق؟**

ثالثًا: ما مكانة **الأخلاق** في الأسلام؟

أولا: ما الأخلاقُ؟

في اللغة: أصلُ **الأخلاق** في اللغة، من حيثُ النظرُ في كتب اللغة، قائمٌ على الحروف الثلاثة: الخاء، واللام، والقاف، إذ جيء بمعانٍ متعددة، فجيء بمعنى تقدير الشيء، وملاسته، وبمعنى الطيب، وبمعنى الدين، كما قد جيء بمعنى الطبع والسجية، والخَلُوقُ: "بالفتح ضربٌ من الطيب[١]". والخُلُقُ: " الدين والطبع والسجية[٢]".

الأخلاقُ بين النّشأةِ والتقويم، إصلاحًا وتفعيلًا، كينونةٌ في النّفسِ، هي الفاعلةُ عمَّا يُصدرُ عنها من أفعال، فلاحًا كان أو خيبة، والله، تعالى فضلُه، يقول: " وَنَفسٍ وَمَا سَوّاهَا. فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاها. قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا" (الشمس: ٧: ١٠)، فإن زُكّت فقد أَفلح صاحبُها،و وَسِمَت بـــ "الخُلُق الحسن"، وإن دُسّت فقد خاب صاحبُها وخسر.

---

(١) خلق: مادة (خ – ل – ق)، لسان العرب لـــ محمد بن مُكَرَّم بن علي بن منظور الأنصاري الخَزرجَي (ت: ٧١١هـــ)، ط٢، الناشر: دار صادر – بيروت، (د– ت).
(٢) السابق نفسه.

الأخلاقُ، حيثُ المنظورُ الإسلامي، مصدرُها الأوحدُ والأولُ هو الله، تعالى سبحانه وَعلت رحمتُه، فالتوجيهُ والإرشادُ منه سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى: "**إِنَّا خَلَقنَا الإِنسَانَ مِن نُطفَةٍ أَمشَاجٍ نَبتَلِيهِ فَجَعلنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَينَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكرًا وَإِمَّا كَفُورًا. إِنَّا أَعتَدنَا للكَافِرِينَ سَلَاسِلا وَأَغلَالًا وَسَعِيرًا. إِنَّ الأَبرَارَ يَشرَبُونَ مِن كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**" (الإنسان: ٣: ٥). تَوجيهٌ وإرشادٌ من الله، تعالى فضلُه، فمَن شاء زكَّى، ومَن شاء دسَّ، فقد تَبيَّنت التزكيةُ مِن الدَّسِ، ولا إكراه فيها.

ثانيًا: ما مصدرُ الأخلاق؟

الأخلاقُ، حيثُ المنظورُ الإسلامي، مصدرُها الأولُ والأوحدُ هو الله، سبحانه تعالى، يُلهِمُ الانسانَ ويُوجهُهُ، دون إجبار أو إكراه، فـ "لَآ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ" (البقرة: ٢٥٦).

الدّينُ خُلُقٌ، فإن حَسُن الخُلُق قد عُنون المرءُ لِلفلاحِ مفازةً، وصار مُعينًا مُصلِحًا لِإيجادِ وخلقِ مُجتمعًا يَسُودُ فيه العدلَ والأمانَ والتعاون و...، لِأجلِ حياةً طيبةً كريمة.

الأخلاقُ، إن اعتُبرت علم، عبارةٌ عن مبادئ وقواعد وأسسٍ مُنظمةٌ لِسلوكِ الانسان، فإن صَلُحَ المرءُ فهو لأبيهِ، أي سيدُنا ءادمُ – عليه السلام –، أقربُ، ولِلتكريمِ أحقُّ وأولى في الدَّارين.

ثالثًا: ما مكانةُ الأخلاق في الإسلامِ، وأهميتها؟

العنايةُ بِتقويمِ **الأخلاق**، الباطنة والظاهرة، نَهجُ القرآنِ الكريمِ ودَربُهُ القَويمُ، تَديرًا وتَرتيلًا، يَهدي إلى الصراط المُستقيم، بُغيةً وغاية، فتلك بُغيةُ ءادم وذريتَه، تلك دَعوتُهم التي يُناطُ به اللسانُ، بل ألسنةُ كلِّ مَن أسلم وءَامن، فصلى وركع، يدعو: "اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ" (الفاتحة: ٦)

هذا، ولم يَقتصر النهجُ القرآني، قرآنًا وحكمة، على بيانِ وتبيانِ أهمية **الأخلاق** الظاهرة، فحسب، **فالأخلاقُ** الظَّاهرة تُرجُمان المرءِ وفؤادِه، وفي الأثرِ: (جُعِل اللسانُ على الفُؤادِ دَليلٌ)[١]، فتلك **الأخلاقُ** الباطنة كوَامنُ المرءِ، لا سبيل إلى إدراكِها، أي إدراك صحةُ **الأخلاق** الظاهرة وخيبتُها، إلا في قَرارةِ المرء، ذاتيًا أولًا واجتماعيًّا مبنيّةَ عليها ثانيًا. مرءٌ مُؤهلًا، بتَزكيةِ نفسِه وفلاحِها، لِفقهِ المُعاملات، إصدارًا وتَصرُّفًا، والحقُّ تعالى قد نَصَّ على هذا، يقول الله تعالى في مُحكمِ التنزيلِ: " **عَليكُمُ أَنفُسُكُم لا يَضرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهتَدَيتُمُ** ..." (المائدة: ١٠٥).

الأخلاقُ مَصدرُها، بل مصنعُها: القلبُ، بُغيتُها: الإصلاحُ، صلاحُ البواطنِ، تلك النَّاطِقُ عنها ومُترجمُها: **الأخلاقُ** الظاهرة " فقه المعاملات "، والقرآنُ الكريم يصمُدُ إلى إصلاحِ البواطن بأضواء الإيمان والهدى إلى الصراطِ المُستقيم.

الحقُّ، تعالى فضلُه، يقول: "ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيبَ فِيهِ هُدًى لِّلمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَلَاةَ وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِالأَخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ" (البقرة: ٢- ٥).هذا، واصطفاءُ البيانُ القرآنِي بصيغةِ المُضارع، في قولِه تعالى: " **يُؤمِنُونَ**"، وقوله تعالى: "**يُقِيمُونَ**"، وقولُه تعالى: "**يُنفِقُونَ**"، وقولُه تعالى: " **يُوقِنُونَ**".

ذاك الاصطفاءُ، بصيغةِ المضارع، سَمتُه: التجدد والحدوث، فالإيمانُ والإقامةُ والإنفاقُ والإيقانُ، تَتَجدد وتُستَحدث.

بينما في قولِه تعالى فضلُه: " أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ"، قد سِيقت بالأسمية، ثبوتًا ودوامًا، دِلالتُها، فالهُدى والفلاحُ أجرٌ ثابتٌ،

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت:٢٥٥هـ، صـ ٨١، ج ١، ط٢، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة ابن سينا، (د ـ ت).

لا يتجدد ولا يُستحدث، وبلاغةُ البيانِ القرآني في اصطفاء البيانِ باسم الإشارة " **أولئك**"، لِتمييزالمسند إليه، أكمل تمييز، فاسم الإشارة الغايةُ منه هنا: التحديدُ الظاهر الكاشِفُ، بما يَمنح المسند، أي:الخبر، الوَفيرَ من القوةِ والتقديرِ في نفسِ مُتلقيه وسامِعه، وتكرارُ اسم الإشارة " **أولئك**" بُغيتُه هنا: التجسيدُ، تَجسيدُ ذاك الهُدى وذاك الفلاح، ويَّكأنَّه، أي الهُدى والفلاح، ممَّا يُمتطى، لِقوةِ إيمان مَن يمتَطِيه، فارسًا بِقوةٍ يُحاكي ذاك المُمتطى(١)، فكان اصطفاءُ البيان بحرف الاستعلاء "**على**"، ذاك مقامُه ومُقتضِيه، وبلاغةُ اصطفاءِ البيان به، لأنَّ ذاك موضِعُه الأخصُّ الأشكلُ به.

ليس العقلُ، منذ الصبا، مَن يَقُودُ الحياةَ، حياة المرءِ، بل العَاداتُ، عَاداتٌ تَنمُو وتُزَكَّى، أو تَخيبُ وتُدس، فيَفلحُ صاحبُها أو يخسر، حَسُن خلُقه أو ساء، فتَصيرعادتُه، دَومًا واستمرارًا، عبادةَ على وَتِيرتِها يُقيمُ شعائرَه.

خيبةُ **الأخلاق** ليس نهائيًا، ودَسُّها ليس قاتلًا، لكن الشجاعةَ على التَّزكيةِ ومُواصلةِ الطريق المُستقيمِ هي الأهمُّ، يقول الله تعالى فضلُه وعلَت رحمتُه: " **إنَّا هَدينَاهُ السبيلَ إمَّا شَاكِرًا وإمَّا كَفُورًا** " (الإنسان: ٣)، فالانسانُ في الآدميةِ، خُلُقًا وخلافةً في الأرضِ، مُخيرٌ، ليس مُسير.

وعلى الاختيار، أي اختيارُ المرءِ السَّبيلَ شكرًا أوكفرًا، أُعِدّ له الجزاءُ والعاقبة، يقولُ الله تعالي في جزاء مَن آمن وشكر: "إنَّ الأَبرَارَ يَشرَبُونَ من كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَينًا يَشرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفجيرًا"، أمَّا مَن جحد وكفر فقد "أَعتَدنَا لِلكَافِرِينَ سَلاسِلا وَسَعِيرًا" (الانسان: ٤، ٥،٦).

---

(١) مِن بلاغة القولِ وفصاحته، أن يُقال إذا سُئل عن حاله: أنا على قيدِ الحياة، وذاك في عنفوانِ جسَارته، أمَّا إذا وَهن العَظمُ فيقول: أنا في قيد الحياةِ، وشتان بين: الاستعلاء، حيثُ حرفُ الجر "على"، قوةً وجسَارة، وبين الظرفية "في" ضعفًا.

والهديُّ قد بيّن أنَّه ليس كلَّ مُسلمٍ ذو خُلُق قويمٍ حميد، بل كلُّ مُؤمنٍ ذو خُلُقٍ قويمٍ حميد، يقول الله، تعالى، حكايةً عمَّا جرى على ألسنةِ الأعراب: " **قَالت الأَعرَابُ ءَامَنَّا قُل لَم تُؤمِنُوا ولَكن قُولُوا أَسلَمنَا ولَمَّا يَدخُلِ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمُ** ..." (الحجرات: ١٤)، ويقول سبحانه، تعالى فضلُه: " **يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسلَمُوا قُل لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمُ أَن هَدَاكُم لِلإِيمَانِ إِن كُنتُم صَادِقِين**" (الحجرات: ١٧).

وشتان بين الإسلامِ والإيمان، فكُلُّ مُؤمنٍ مُسلم، وليس كلُّ مسلمٍ مُؤمناً.

الشكرُ والتَّزكيةُ مُؤدَّاهُ الفلاحُ والإِيمَان، والكفرُ والجُحدُ، دسَّا وخيبةً، مُؤداه الخسرانُ، وإن كان مُسلمًا.

هذا، والجنَّةُ عَروسٌ ... مَهرُهَا قَهرُ النفوسِ، تَزكيةً وتَقويمًا، إن اعوجَ السبيلُ.

المحور الثاني

آليَّاتُ بِناء الوعي الرشيد ... تَربيةً وتَرقية

الوَعيّ:

ويتناول التعريف بمفاهيم الدراسة، ويشتمل على:

أولًا: ما الوَعيُّ ؟

ثانيًا: ما الوَعيُّ الغائي ؟، أهميتُه؟

أولاً: ما الوعي؟

البيانُ عن الوَعي يَسبقُّه بيانٌ عن رَصدِ الدلالة اللغوية للمادة، أي مادة: "وعي"، فيُعينُ القارئ على تبيانِه في أمورٍ ثلاثة، ألا وهي:

الأول: التأكيدُ على الذاتية الفكرية في نداولِ المُصطلح، بيانًا وتبيانًا.

ثانيًا: رصد الدلالة الأوّلية للمُصطلحِ في اللسان العربي(١).

ثالثًا: الوعي بـــ التطور الدلالي للمصطلح، ما دامت الحياةُ، تجددًا وحدوثًا.

أمَّا عن دلالة ذاك المصطلح حيثُ الدلالةُ اللغوية، فـــ الوَعيُّ لغةً(٢): حفظ القلبُ الشيءَ، حفظًا وفهمًا. والوَعيُّ أبلغُ دلالةً من الحفظِ، لأنَّه يختصُّ بالباطن، بينما الحفظُ فَمدَارُه ومحورُه الظاهر(٣).

الوَعيُّ اصطلاحًا: الخاصةُ التي تُميز السلوكَ عن النشاطِ الفسيولوجي، اتجاهٌ وسَمَتٌ عقليٌّ إنعكاسيٌّ يُمكِّنُ الفردَ من الوعي بذاتِه أولًا وبالبيئةِ المُحيطة به بدرجاتٍ متفازتة، من الوضوحِ والتعقيد(٤).

---

(١) آليّات تشكيل الوعي في ضوء السنة النبوية: لـــ محمود بطل محمد، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، كلية الشريعة الإسلامية، صـــ ١٠٥، ط١، الناشر: الرقم الدولي الموحد للتصنيف الإلكتروني.

(٢) لسان العرب، مادة (و ــ ع ــ ى).

(٣) آليّات تشكيل الوعي في ضوء السنة النبوية: صـــ ١٠٥.

(٤) السابق نفسه.

وَعيُّ الفردِ بما اكتُسِب ومُنِح، عقليًا وجُسمانيًا، وإدراكُه لذاتِه أولًا، وكلبنةٍ في جماعةٍ ثانيًا.

حجمُ التطورِ والتغيرالذي نُعاصره أسرعُ مِن قبل، لأجل هذا نحتاجُ أن نُطورَ من نفسِنا، أولًا وقبل كل شيء، فالحقُّ يقول: " عَليكُمُ أَنفُسُكُم لَا يَضرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهتَدَيتُمُ ..." (المائدة: ١٠٥)، والمرءُ مرآةُ أخيه، كما جاء في الأثرِ، والنَّاسُ كـــ البُنيانِ، إن صلُبَ واستمسكَ، يُشادد بعضُه بعضًا، وتمسُّكُ المجتمعِ بِحميدِ الأخلاقِ والالتزامِ بها يُعَدُّ سببًا في عِزتِه وبقائه، بينما يُعدُّ انحلالُ الأخلاقِ وفرطُ عدمِ التمسُّكِ بها سببًا في زوالِها وانحلالِها، بل وتَلاشي أثرَها.

قد تعددت التعريفات لهذا المصطلح، مصطلح: الوعي، وفقًا لتعدد الموارد والمجالات التي سِيق فيها، وشَاع. بَيد أنَّ مبلغَ وجوهرَ الفصاحةِ فيه، هنا، تقييدُه بـــ صفة "الرُشد"، فقال الله تعالى حكايةً عما نَطقت به الجنُ، عكسُ ولد ءادم ـــ عليه السلام ـــ حين استمعوا إلى الهُدى: " **قُل أُوحِيَ إِليَّ أَنَّه استَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعنَا قُرءَانًا عَجَبًا. يَهدِي إِلَى الرُّشدِ فَئَامَنَّا بِهِ وَلَن نُشرِك بِرَبِّنَا أَحَدًا**" (الجن: ١– ٢).

هذا وكلمةُ "**الرشيد**"، التي مَنبتُها: الرشدُ، مرماها العَاقِلُ المُدركُ الوَاعي لِلأمورِ، به قد وُسِمَ واتصف. وقد ذُكرت ودُونت كلمةُ "رشد" في القرآن الكريم تسع عشرةِ مرة. والشيءُ بالشيءِ يُذكرُ ويُبينُ فلقَ الصبحِ، فقد تَعرضت عِدةُ أممٍ سابقة قد نصَّ القرآنُ، عِظة وذِكرًا، لِسخط الله عليها وحلَّ عليها عذابَه بسبب ما رَامت إليه من التقليدِ الأعمى المُستبد، يقول الله تعالى حكايةً عنهم: " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَل نَتَّبِعُ مَآ أَلفَينَا عَلَيهِ ءَابَآءَنَا ...**"، ويقول تعالى: " **أَوَ لَو كَانَ ءَابَآؤُهُم لَا يَعقِلُونَ شَيئًا وَلَا يَهتَدُونَ**" (البقرة: ١٧٠ــ ١٧١)، ومصدرُ **الأخلاق** ذو قيمٍ ومُثُل عُليا ثابتة، صالحةٌ لِكلِّ إنسان، بصرفِ النظر عن جنسِه ونوعِه وزمانِه ومكانِه، **فالأخلاقُ** الحِسانُ ركنٌ قويمٌ مِن أركانِ الدين الإسلامي الحنيف، رُكنٌ لا يَلحقه نسخٌ أو تَبديل.

ثانيًا: ما الوَعيُّ الغائِي، وأهميته؟

الوَعيُّ الغائيّ مصطلحٌ يَكتِنزُ تِبيانُه في قوله تعالى سبحانه: " **إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ** " (الفاتحة: ٥)، هُدًى ورُشدًا، وغايةَ الصراطِ المُستقيم، ذاك الهُدى به، أي: هدى الصراط المستقيم، إن فُعّلَ استحق المرءُ درجةَ الرفعةِ والكرامة، بل وأحقية الخلافةِ على الأرضِ لله تعالى، خليفةً بما مُنِح وعُلِّم، ذلك الذي به فُضِّل على غيرِه من المخلوقات وسجدت له الملائكةُ أجمعون.

والإسلامُ حين يَحثُّ على السَّعي في الأرضِ وعمارتِها إنَّما يحثُّ في الحقيقةِ على استكمالِ معنى الخلافة، أي خلافةُ سيدنا ءادم، عليه وعلى أنبياء الله ورسلهِ الصلاة والسلام، سيدُنا ءادم – عليه السلام – الذي فُضِّل بأن عُلِّم " **الأَسمَاءَ كُلَّهَا** " (البقرة: ٣١)، بل وقد طُلِب منه – عليه السلام – تَفعِيلها، فقال تعالى فضلُه: " **قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئهُم بِأَسمَآئِهِم فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسمَآئِهِم** " (البقرة: ٣٣)، سَجَدت له المَلائكةُ – عليهم السلام – كلُّهم أجمعون.

هذا، ومُجملُ البيانِ ولُبُّهُ في هذا المبحث قولُ الله تعالى فضلُه: " **لَاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ** " (البقرة: ٢٥٦)، كذا، لا إكراهَ في التَّمسُكِ بِحُسنِ **الخُلُق**، نهجًا، وبرُشدِ الوَعيِّ، اقتداءً بِسيدنا رسول الله ﷺ فمَن شاء، رُشدًا وفلاحًا، فليُزكي نفسَه، ومَن شاء، خيبةً وضلالا، فقد دَسَّها، دينًا وعصمة.

المحور الثالث

آليَّاتُنا الإسلامية الغائبةُ عنا ... تذوقًا وتفعيلًا في إعدادِ جيلنا

الآليَّاتُ:

ويتناول التعريف بمفاهيم الدراسة، ويشتمل على:

- ما كوثرُ الآلية؟
- ما كوثرُ الآلية عند علماء البلاغة والإعجاز، نحو:
- الإمام الخطابي (٣١٩هـ ــ ٣٨٨هـ)
- الإمام الجرجاني (ت ــ ٤٧١هـ) ؟

أولًا: ما كوثرُ الآلية؟

كوثرُ الأليّةِ: التَّقوى، فالإسلامُ والدينُ، بل والبرُّ: التَّقوى، يقول الله تعالى سبحانه: " **وَلَكِنَّ البرَّ مَن اتَّقَى** " (البقرة: ١٨٩)

التَّقوى غايةُ الهُدَى، تلك تاجٌ تُوَّج به الإسلامُ، فالحقُّ – سبحانه – من بعد أن استهلَّ كتابَه المجيد بمقدمةٍ، أي سورةُ الفاتحة، عَجُزت وختمت بدعاء المؤمن، صباحًا مساءً، بقوله تعالى: "**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**" (الفاتحة: ٦)، تلك دُعاءُ المؤمن الهُدَى، أي الدينَ المستقيم، اتقاءً واجتنابَ أضدادِه، أي صراطَ اليهود "**المَغضُوب عَلِيهِم**" (الفاتحة:٧)، وصراطَ النصارى "**الضَّآلِينَ** "(الفاتحة: ٧).

هذا في شأن بلاغة ردّ عَجُز سورة الفاتحة بصدرِ السورة التالية،أي البقرة، ذلك الكتابُ فيه هدًى لِمَن اتَّقى، خُلُقًا وعبادةً ومُعاملةً، قرب التعاملُ أو بعُد.

أقربُ المعاملات في حياةِ المرء النَّاضج الكامل، زوجُه، اتفاقًا كان أو اختلافًا.

ثانيًا: ما كوثرُ الآليّة عند علماء البلاغة والإعجاز، نحو:

الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)– الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت:٤٧١هـ)؟

أولًا: نصّ الإمام الخطَّابيّ:

قراءةٌ بلاغية في نصَّ **الإمام الخطابي**[١]، إذ يقول الإمامُ في رسالته إزاء إعجاز القرآن الكريم: "اعلم أَن عمود هذه البلاغة[٢] التي تجمع لها هذه الصفات[٣] هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأَخص الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاءَ منه: إِما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام[٤]، وإِما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة[٥]، ذلك أَن في الكلام أَلفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أَكثر الناس أَنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كـــ العلم والمعرفة، والحمد والشكر، ...؛ لأَن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها".

ثانيًا: تبيانُ المُحاولة في نصِّ الإمام الخطَّابي:

نحن نعلم، يقينًا، أنَّ الإسلامَ بُني على خمسٍ:

شهادةُ أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسولُ الله،

وإقام الصلاة،

وإيتاء الزكاة،

وصوم رمضان،

وحجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلًا.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرُّمَّاني والخَطَّابي وَعبد القاهرِ الجرجَاني)، تح: محمد خلف الله، دكتور محمد زغلول سلام، صـــ٢٩، ط٨، الناشر: دار المعارف.

(٢) أي: بلاغة القرآن الكريم، السابق نفسه.

(٣) أي: تمام المعنى، وفصاحة اللفظ، وتمام بلاغة النظم، السابق بتصرف.

(٤) أي: فساد الدلالة، إن عكس ذلك، السابق بتصرف.

(٥) أي: ذهاب البلاغة، إن خولف ذلك، السابق بتصرف.

لكن، قد يُسئل قائ القرآن الكريم، بتدير وَعي، أهناك فارقٌ:

بين أقيموا الصَّلاةَ، وبين: صلُّوا ؟

نعم، هناك فارقٌ في الغاية والبُغية،

الصَّلاةُ لغةً: الدُعاءُ، لكن في إقامتِها إقامةُ حياة، وتَزكيةُ نفسٍ، فَيَفلَحُ صاحبُها؛ لحُسنِ الإقامةِ والتزكية.

أهناك فارقٌ:

بين: ءَاتُوا الزكاةَ، وبين: زَكُّوا؟

نعم، حيثُ إحضارُ الجماعةِ، في قولِه تعالى فضلُه: "ءَاتَوا الزَّكاةَ "؛ تطهيرًا وتزكيةً، بل وتعاونًا في الأُلفةِ وموفورِ المحبةِ والمساعدة.

كذا الفارقُ:

بين كُتب عليكم الصيامُ، وبين: صُومُوا،

والفارقُ:

بين أتموا الحجَّ والعمرةَ لله، وبين: حجُّوا، واعتمروا.

نعم، في اصطفاءِ البيانِ – سبحانه – بلاغةٌ، أيَّما بلاغة وفصاحة.

ثالثًا: نصُّ الإمامُ عبد القاهر الجرجاني:

عَلَّ كوثرَ هذا المبحث، بل وجُمعتُه، قولُ الإمامِ البلاغي الجُرجاني بأسرارِه، إذ يقول: " **إنّ ما طريقُه التأوُّل يتفاوت تفاوتًا شديدًا، فمنه ما يقربُ مأخذُه ويسهُل الوصول إليه، ويُعطى المَقَادةَ طوعًا، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأوُّل في شيء، ومنه ما يُحتاج فيه إلى قدر من التأمّل، ومنه ما يدِقّ ويغمُض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل رويّةٍ ولُطفِ فكرةٍ**"[١].

(١) أسرار البلاغة للإمام هبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، ت: الشيخ محمود شاكر، صـ ٩٣، فـ ٨٥، ط١، الناشر: دار المدنى بجدة.

أولاً: تبيانُ المحاولة في نصِّ الإمام إزاء الزواج، مُشاركةً:

في نصِّ الإمام عبد القاهر الجرجاني أجولُ وأتبينُ، إذ يقول الإمامُ:: " **إنّ ما طريقُه التأوُّل، في تبيانه، يتفاوت تفاوتًا شديدًا، فمنه ما يقربُ مأخذُه ويسهُل الوصول إليه، ويُعطى المَقَادةَ طوعًا، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأوُّل في شيء، ومنه ما يُحتاج فيه إلى قدر من التأمّل، ومنه ما يدِقّ ويغمُض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل رويّةٍ ولُطفِ فكرةٍ**"(١).

أولًا: هذا الطريقُ، في بحثنا هذا، فيم يكون، حتى يَسلم سَالِكُه ويُسَد؟

ثانيًا: هذا التأوُّل، تبيانًا، المُتَفاوَتُ فيه، شِدّةً أو عكس ذلك، ما الوَاجبُ في تَلقِيه؛ حتى يُفعّل ويُثمر؟

دونك أيُّها المشحُونُ، شغفًا وتَلقيًّا، قول الله تعالى فضلُه: " الم. ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيب فِيهِ هُدًى لِّلمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَممَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِالأَخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ. أُولَئكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِهِم وَأُولئكَ هُمُ المُفلِحُونَ " (البقرة: ٢- ٥).

التحليلُ البلاغي:

إنَّ مُستهلَّ وصدرَ سورةِ البقرة سِيق وجيء إجابةً لِدعاءٍ ختمت به سورةُ الفاتحة قبلُ: " **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ...**" (الفاتحة: ٦- ٧)

الصراطُ المُستقيم هو الدينُ، الدينُ المُستقيم الذي قد دُعي به، وإليه، دينٌ ذو كتابٌ مُمنهجٍ، كتابٌ " لَا رَيبَ فِيهِ" (البقرة: ٢)، الصَّادِقُ المصدوقُ، قولُه، تبيانًا، لا تَنفذ عجائبُه وهديه على كثرةِ الرّد، كتابٌ فيه "هُدًى لِّلمُتَّقِينَ" (البقرة: ٢)، المُتقونُ الذين اجتنبوا واتقوا صراطَ ودينَ المغضوب عليهم، وهم اليهود، وصراط الضآلين، وهم النصارى، فسلَكُوا هدًى المُتقُين، الذين يُومِنُون بـــ "

(١) أسرار البلاغة: صـــ ٩٣، بتصرف.

الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَممَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِالأَخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ" (البقرة: ٣ – ٤)

تلك صفاتُ وسماتُ المُتقين، سِيقت بيانًا وبلاغة بـــ المضارع، الموسُومُ بـــ البتَّجددِ والحُدوث، فالإيمانُ يَزيد وينقص، كذا المحمولُ عليه والمُستولَد منه، عبادةً، نحو: الصلاة، ومعاملةً، نحو: النَّفقةُ والزكاة، وإيمانًا، نحو: الإيقانُ بالأخرة. زَاد الإيمانُ وصَدق فـــ "**أُولَئكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِهِم وَأُولئكَ هُمُ المُفلِحُونَ** " (البقرة: ٥).

الزواجُ :

حيثُ المُشاركةُ، والواجب توافره، الصَّلاةُ آليَّتُهُ في حفظِ المِيثَاق الغليظ:

القرآنُ الكريم قد عرض تلك الشراكة، وما يجب توافره فيها، وما لا يجب، فالحقُ – سبحانه – قد عرض تلك الشراكة في سورةِ البقرة، تلك سورةٌ تَكتنزُها الجملةُ الأم، وهي قولُه تعالى: " **الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ** " (البقرة: ٢).

أمَّا في شأنِ تلك الشراكة، قبلُ، فالله يقول تعالى سبحاته: " **وَلَا تَنكِحُوا المُشرِكَاتِ حَتَّى يُؤمِنَّ وَلَأمَةٌ مُّؤمِنَةٌ خَيرٌ مِّن مُّشرِكَةٍ وَلَو أَعجَبَتكُم وَلَا تَنكِحُوا المُشرِكِينَ حَتَّى يُؤمِنُوا وَلَعَبدٌ مُّؤمِنٌ خَيرٌ مِّن مُّشرِكٍ وَلَو أَعجَبَكُم أُولَئكَ يَدعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدعُوا إِلَى الجَنَّةِ وَالمَغفِرَةِ بِإِذنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ**" (البقرة: ١٢١)، فأقربُ التبيانِ في شأن هذا قولُ رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم – **(إذا جاءكم مَن تَرضَونَ دِينَهُ وخُلُقه فَزوجوه)**[١]، تلك الآيةُ الكريمة سَمتُها البلاغي: الإيجاز، أي: إيجازُ القصر بيانًا، بينما تبيانُها فسَمتُه: الإطناب، ذاك بما يحمله تبيانُها مِن نُصحٍ وعِظةٍ وتوجيهٍ قويم.

---

(١) شرح الأربعين النَّوَويَّة في الأحاديث الصحيحة النَّبويَّة، لوارث العلم النبوي يحيى بن شرف الدين النووي، ت: ٦٧٦هـــ، صـــ ٧٧، طُبع بتصريح من إدارة البحوث والنشر بالأزهر، نشر: شركة الشمرلي، بتصرّف.

الفراقُ:

حيثُ الفراقُ والطلاق، وعدتُه، آليَّتُه حفظُ المواثيق: الصَّلاةُ تُحاكي ذاك الحفظ.

الله، سبحانه، أخلفَ البيانَ عن الزواج بما يُناهِضُه ويُضاده، نَفرةً أن يُستسهلَ فيكون، والشيءُ بِضدِه يُبينُ ويُوضح، فعقَّب، سبحانه، الحديثَ عن العِدَّةِ، فراقًا كان، أو ما يُحاكيه، أو ظهارًا، " **وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ**" (البقرة: ١٨٩)، أي: اتقُّوا الله تعالى في ءاياتِه وحدودِه، فالعِدّةُ حَدٌّ، فلا تَعتدُّ، " **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ**" (البقرة: ٢٢٩)، ويقول الله تعالى فضلُه: " **وَتِلكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَومٍ يَعلَمُونَ**" (البقرة:٢٣٠)

العِدَّةُ ءاياتٌ وحدودٌ تبيانُها الحفاظُ عليها، حفظًا يُحاكي حفظ الصلاةِ؛ لذا أعقب – سبحانه – بيانَ حفظ تلك الحُدودُ والآيات بما يُشَاكله ويُحاكِيه، فقال تعالى فضلُه: " **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاوَاتِ والصَّلاةِ الوُسطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**"[(١)] (البقرة: ٢٣٨)، ثم استأنف، سبحانه، البيانَ، أي البيان عن العُدَّةِ.

أمَّا مُحاولةُ تبيان نصّ الإمام إزاء الطلاق، تحليلًا بلاغيًا، فيقولُ الإمامُ[(٢)]: "**إنّ ما طريقُه التأوُّل، في تبيانه، يتفاوت تفاوتًا شديدًا،...، فمنه ....، ومنه ما يدِقّ ويغمُض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل رويّةٍ ولُطفِ فكرةٍ.**"

قد أثُرى الله – سبحانه تعالى فضلُه – البيانَ عن العِدَّة، فسمتُها: حُدُودٌ وءَاياتٌ، والحفاظُ عليها، إقامةً وتَزكيةً وتَفعيلًا، مُحاكاةً ومُشابهةً بمَن يُحافظ على الصَّلاةِ، فالشبهُ هنا: تأويلُهُ وكشفُهُ ممَّا يَدقّ ويَغمُضُ حتى يُحتاجُ في استخراجِه إلى فضلِ تَدبُرٍ وترتيل.

---

(١) وكأنَّ قولُه تعالى: "حَافِظُوا علَى الصَّلاواتِ"، يُحاكي الحفاظَ على عقدِ الزواج، وأمَّا قولُه تعالى: "والصَّلاةِ الوُسطَى" فيُحاكي الطلاق والفراق، فثقلُهما، حفظًا وإقامتهما حقًا، يُحاكي ثِقل تلك الصَّلاة على النَّفسِ، تزكيّةً وفلاحًا، هذا ما هُديتُ.

(٢)أسرار البلاغة: ٩٣، بتصرف.

وحقيقةُ الصَّلاةِ وبُغيتُها: أنَّها " **تَنهَى عَنِ الفَحشَاءِ والمُنكَرِ**" (العنكبوت: ٤٥)، فالنَّهيُّ حقيقةُ بُغيةِ الصَّلاةِ، ذاك من حيثُ جنسُ المعنى وعمومُه، وذاك الواجبُ تَوافُرُه، وجودًا وتحقيقًا، في حَدِّ الطلاق والعدة، فالدينُ كمالُه المُعاملة، وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: أحاسِنُكم أخلاقًا أقربكم منِّي مجلسًا يوم الدين، تلك كلمةُ الفصلِ.

هذا، " فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، أي في حفظِ ذاك الميثاق اتفاقًا كان أم اختلافًا، ووضع قياس من غيره يكشِف عن حَدّه ومبلغِه في القوة والضعفِ والزيادة والنقصان[١]"، فكانت الصَّلاةُ والحفظ عليها.

(١) أسرار البلاغة: صـــ ١٢٥، بتصرف.

الخاتمـــة

سأل هذا القارئُ المُتدبر، يقول: "لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم، فيكون لكلِّ نوعٍ من أنواع علومه حَيِّز وقبيل، لكان أَحسن نظمًا وأَكثر فائدة ونفعًا ؟

فالجواب(١): " أَنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أَشياءَ مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد؛ لتكون أَكثر لفائدته وأَعم لنفعه.

ولو كان لكلِّ بابٍ منه قبيلٌ، ولكل معنى سورةٌ مُفردةٌ لم تُكثر عائدته، ...، فكان اجتماعُ المعاني الكثيرة في السورةِ الواحدة أَوفر حظًّا وأَجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذي ذكرناه، وتلك ضالةُ قارئ القرآن المُتدبَّر لحُسنِ نظمِه.

وقد أحب الله عزوجل أَن يمتحن عبادَه ويبلُوا طاعتَهم واجتهادَهم في جمعِ المُتفرق منه، وفي تنزيلِه وترتيبه، وليرفع اللهُ، تعالى، الذين آمنوا منَّأ والذين أُوتوا العلم درجات."

نعم، والله تعالى قد قرر في بيانِه الشريف هذا الاجتهادَ المُكرَم فيه صاحبه، القارئُ المُتدبرُ، فقال تعالى: "**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنِينَ**" (العنكبوت: ٦٩).

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رالةُ الإمام الخطابي: صـــ ٥٤.

ثبت المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة للإمام هبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، ت: الشيخ محمود شاكر، صـ ٩٣، فـ ٨٥، ط١، الناشر: دار المدنى بجدة.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرُّمَّاني والخَطَّابي وَعبد القاهرِ الجرجَاني)، تح: محمد خلف الله، دكتور محمد زغلول سلام، صـ،٢٩، ط٨، الناشر: دار المعارف آليّات تشكيل الوعي في ضوء السنة النبوية، مجلة: معالم القرآن والسنة
- البيان والتبيين لـ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت: ٢٥٥، تح: عبد السلام هارون، ط١، نشر: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع
- آليّات تشكيل الوعي في ضوء السنة النبوية: لـ محمود بطل محمد، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، كلية الشريعة الإسلامية، صـ ١٠٥، ط١، الناشر: الرقم الدولي الموحد للتصنيف الإلكتروني.
- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية لوارث العلم النبوي يحيى بن شرف الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ، ط٢، طبع بتصريح من إدارةِ البحوث والنشر بالأزهر.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	مستخلص
٢	المقدمة
٣	المحور الأول: الأخلاقُ ... البُغيةُ والغاية
٤	المحور الثاني: آليَّاتُ بِناء الوعي الرشيد ... تَربيةً وتَرقية
٥	المحور الثالث: آليَّاتُنا الإسلامية الغائبةُ عنا
٦	(تذوقًا وتفعيلًا في إعدادِ جيلنا)
٧	الخاتمة
٨	ثبت المصادر والمراجع
٩	فهرس الموضوعات